أما الدكتور سيوارد المسكين، فقد كانت حالته مختلفة. في اليوم الثالث، أمسكت لوسي يده، وقالت: «لن تسهر الليلة. تبدو في حالة مزرية وقد أصابك إعياء شديد. وكما ترى، لقد استرددت عافيتي ثانيةً.»

تردد دكتور سيوارد، لكنه كان متعبًا كثيرًا، ووعدته لوسي بأن تنام في الغرفة المجاورة لغرفته وأن تترك الباب مفتوحًا حتى يسمعها إذا احتاجت إلى أي شيء.

استيقظ دكتور سيوارد في الصباح التالي بعد أن هزه فان هيلسنج الذي كان عابسًا. سأله: «كيف حال مريضتك؟»

قال دكتور سيوارد: «لقد كانت بخير الليلة الماضية.»

ذهب الرجلان للاطمئنان عليها. عندما فتحا ستائر الغرفة المجاورة، اعترتهم صدمة كبيرة، فقد كانت لوسي أكثر شحوبًا وضعفًا مما كانت عليه قبل ذلك بيومين. كان يبدو أن جسدها لم يعد يحمل قطرة دم واحدة.

تمتم فان هيلسنج مستهجنًا: «ضاع مجهودنا سُدًى، علينا أن نبدأ من جديد!»

كان جون سيوارد هو من تبرَّع بالدم هذه المرة. ولأنه كان مسئولًا عما حدث، شعر براحة كبيرة وهو يرى التأثير الفوري لنقل الدم مرة أخرى على المريضة.

في الصباح التالي، أحضر فان هيلسنج للوسي زهورًا، ورتبها في أنحاء غرفتها بعناية.

قالت لوسي: «إنها رائعة، ولكن ما هذه الرائحة؟» ثم أدركت ماذا كانت هذه الزهور؛ لقد كانت ثومًا! فقالت: «هل هذه مزحة؟»

أجاب فان هيلسنج في حدة: «الموقف لا يحتمل أي مزاح، وسوف تتركين هذه الزهور هنا، من أجل الآخرين إن لم يكن من أجل نفسك.» بدت لوسي خائفة، فقال لها فان هيلسنج بلطف: «أعتذر بشدة، لم أقصد أن أفزعك. هلا قبلت مني هذه الزهور المتواضعة على سبيل المجاملة؟ وهلا أسديتني معروفًا آخر بوضع إكليل منها حول رقبتك وعدم خلعه؟»

قالت لوسي: «يشرفني أن أقبل زهورك.»

قال فان هيلسنج: «يبقى أمر أخير، لا تفتحي نوافذ غرفتك أو أبوابها.»

لم تفهم لوسي، لكنها وافقت.

في الصباح التالي، قابل الطبيبان سيوارد وفان هيلسنج والدة لوسي في الرواق بالأسفل.

سألها فان هيلسنج مبتهجًا: «كيف أصبحت مريضتنا؟» حرصًا عليها، لم يخبرها أي منهما بمدى خطورة حالة لوسي.

قالت السيدة ويستينرا: «حسنًا، ربما لم تكن في أحسن حال، لكنني عالجت الأمر.»

سألها دكتور سيوارد منفعلًا: «ماذا تقصدين؟»

شرحت له السيدة ويستينرا: «حسنًا، عندما ذهبت لأطمئن عليها الليلة الماضية، كانت الغرفة ممتلئة بأزهار ثوم كريهة الرائحة وكانت عديمة التهوية لأن النوافذ كانت مغلقة. لذا، ألقيت الزهور بعيدًا وفتحت النافذة ليدخل بعض الهواء النقي. أنا متأكدة من أن ابنتي نعمت بنوم أفضل الليلة الماضية بفضلي.»

دون إبداء أي رد فعل أمام والدة لوسي، انتظر الرجلان حتى مرت، ثم هرعا إلى غرفة لوسي. بالطبع، حدث ذلك ثانيةً. كانت لوسي أكثر شحوبًا من أي وقت مضى. ثار غضب فان هيلسنج لحظة فصاح قائلًا: «كيف يمكننا محاربة هذه الشياطين؟» لم يفهم دكتور سيوارد دلالة هذا التعليق بالتحديد. لكنه تمالك نفسه بعد دقيقة وعاد لعمله. هذه المرة، كان فان هيلسنج هو من تبرع بالدم.

اضطر دكتور سيوارد للعودة إلى المصحة لتفقد بعض مرضاه، لذا وافق فان هيلسنج على البقاء مع لوسي. وكان آرثر قد ذهب في رحلة عمل.

بعد مرور بضع ليالٍ، كان الدكتور سيوارد في مكتبه يقرأ بعض الكتب الطبية بعد العشاء، عندما انفتح الباب فجأة وباغته رينفيلد ممسكًا سكينًا. قبل أن يتسنى للدكتور سيوارد أن يبدي أي رد فعل، كان رينفيلد قد جرح معصم الدكتور بالسكين، فتساقطت بعض نقاط الدم على الأرض.

دخل الموظفون المقيمون متأهبين للتصرف معه، لكن رينفيلد كان مطروحًا على الأرض بالفعل. كان راقدًا على بطنه يلعق الدماء مثل الكلب في مشهد مثير للاشمئزاز. وخلد الدكتور سيوارد للنوم وهو منزعج بشدة.

وزاد انزعاجه في الصباح التالي عندما تسلم برقية وصلت متأخرة يومًا كاملًا. كانت رسالة عاجلة من فان هيلسنج يقول فيها إنه اضطر للمغادرة إلى أمستردام على الفور ويطلب من دكتور سيوارد أن يمضي الليلة مع لوسي. أدرك دكتور سيوارد مع الأسف أن الرسالة كانت تشير إلى الليلة الماضية. وقد أمضت لوسي الليلة وحدها.

هرع دكتور سيوارد والخوف يتملكه إلى منزل عائلة لوسي. وعندما وصل، التقى فان هيلسنج وهو يركض لاهثًا في الرواق. وكما هو متوقع، رأى الرجلان مشهدًا مرعبًا.

حكت لهما لوسي فيما بعد أنها وجدت نفسها وحيدة الليلة الماضية، وكانت مطمئنة إلى زهور فان هيلسنج — التي كان قد أعاد وضعها — وحرصت على وضعها حول

رقبتها قبل أن تأوي إلى الفراش. لكن عندما حاولت أن تغمض عينيها، استيقظت على أصوات نباح كلاب جاءت من بعيد ورفرفة غريبة على نافذتها.

كانت قد شعرت بوهن وتوتر شديدين، حتى إنها طلبت من والدتها أن تستلقي إلى جوارها. وأردفت لوسي قائلة إنه في خلال دقائق سمعت صوت عواء منخفض خارج النافذة مباشرةً. ثم حدث اقتحام بشع حيث قفز ذئب عملاق من النافذة مخترقًا الزجاج.

ملأ الرعب صدر والدة لوسي، فتشبثت بزهور الثوم التي كانت حول رقبتها فمزقتها. لكن الزهور لم تكن لتنقذها: مزَّق الذئب رقبتها، فقتلها ثم اندفع خارجًا من النافذة مرة أخرى.

تجمدت لوسي في مكانها مرتعدة، وحيدة، مع جثة والدتها. لم تجرؤ على الخروج. ولم تجرؤ على الحراك. لكنها ظلت تصلي فقط.

كانت هذه المرة هي أصعب معارك فان هيلسنج على الإطلاق. لقد استطاع أن ينعش لوسي قليلًا باستخدام بعض الأملاح كريهة الرائحة، لكنها كانت تحتاج إلى مزيد من الدماء وكلا الطبيبين كانا قد أجريا نقل دم بالفعل.

انطلق صوت يقول: «هل يمكن الاستعانة بي؟» وعندما نظرا، وجدا كوينسي موريس، الرجل الذي جاء من تكساس وعرض الزواج على لوسي. كان آرثر قد طلب من موريس أن يمر بلوسي ليطمئن عليها في غيابه. وأجرى فان هيلسنج نقل الدم.

شُفيت لوسي مرة أخرى، لكن كان بها شيء مختلف هذه المرة. ربما كان هذا الشيء في عينيها؟ ربما كانت تحمل قسوة جديدة عليها؟ كان من الصعب تحديد هذا الشيء. بالإضافة إلى ذلك، كانت أسنانها قد نمت قليلًا. وهذه الحقيقة هي أكثر ما أقلق فان هيلسنج.

في يقظتها، كانت تجذب زهور الثوم بالقرب منها. لكن أثناء نومها، كانت تبعدها عن نفسها وتكشف رقبتها. وظلت أسنانها تزداد طولًا. لكن سرعان ما لاحظ الدكتور سيوارد أن الجروح التي كانت في رقبتها قد اختفت تمامًا.

صاح دكتور سيوارد: «يا له من خبر سعيد!» لكن فان هيلسنج استنتج من هذا أمرًا مختلفًا، فأعلن قائلًا: «إنها تحتضر. ولم يبق أمامها وقت طويل. اذهب وأحضر آرثر، لا بد أن نخبره.»

انحنى آرثر منفطر القلب مرتبكًا نحو عروسه التي لن يتزوجها أبدًا. وعندما رأته لوسي، دبت فيها قوة مفاجئة. صاحت: «آرثر، أنا سعيدة جدًّا لأنك أتيت. قبِّلني! قبِّلني!»

أمسكت عنقه وجذبته نحوها بكل قوتها المفاجئة. هرع فان هيلسنج نحوهما وجذب آرثر، ودفعه للخلف فألقاه في الجانب الآخر من الغرفة. وصرخ قائلًا: «إياك أن تفعل! من أجل حياتك وحياتها!»

كسا الغضب لحظات وجهي كل من لوسي وآرثر، لكنه سرعان ما اختفى من وجهها وشعرت بالامتنان لما فعله فان هيلسنج. قالت: «أشكرك، أرجوك أن تحميه وتمنحني السلام.» وعندئذٍ لفظت أنفاسها الأخيرة، ورحلت.

اندفع آرثر خارج الغرفة غاضبًا حزينًا. اقترب دكتور سيوارد ووقف إلى جوار فان هيلسنج ناظرًا إلى لوسي المسكينة.

قال دكتور سيوارد: «أيتها المسكينة، يا لها من نهاية مأساوية.»

أجاب فان هيلسنج: «كلا، إنها ليست إلا بداية.»

الفصل العاشر

فان هيلسنج يطلب الإيمان

عجَّل وجود مينا بجانب جوناثان بشفائه. لكن سعادة الحياة ظل يشوبها الحزن. فقد توفي السيد هوكينز مؤخرًا وترك لهما في وصيته بيتًا قديمًا جميلًا في إكستر. كانا يشعران بالامتنان والسعادة، لكنهما افتقدا صديق جوناثان القديم ومعلمه. ومنذ أيام قليلة فقط علما بحادثي وفاة لوسي ووالدتها الأليمين.

إضافةً إلى أن أحداثًا غريبة أخرى كانت تجري في لندن، حيث كانت نشرات الأخبار الليلية تتحدث عن اختطاف أشخاص وعودتهم وعلى رقابهم ثقوب صغيرة؛ عضات من نوع ما. لقد كانت تلك بلا شك أوقاتًا مرعبة ومربكة.

كان الأستاذ فان هيلسنج قد كتب إلى مينا يسألها أن تسمح له بزيارتها في إكستر. ومع أن جوناثان كان في طريقه إلى الشفاء، رأت مينا أن فان هيلسنج يستطيع مساعدته هو الآخر. كان لا يزال يبدو مضطربًا في بعض الأحيان.

فمثلًا، في جنازة السيد هوكينز في لندن، كانا يجلسان هناك في هدوء عندما تشبث جوناثان فجأة بذراع مينا وتمتم بأنفاس متقطعة: «يا إلهي!» التفتت مينا لترى ما ينظر إليه. كان هناك رجل طويل نحيف ذو شارب أسود ولحية مدببة. كان وجهه قاسيًا وأسنانه ناصعة البياض — لأن شفتيه كانتا شديدتي الاحمرار — وطويلة ومدببة كأسنان الحيوانات.

تمتم جوناثان: «إنه هو، ولكن كيف يُعقل هذا؟ لقد عاد إلى ريعان شبابه!»

قلقت مينا عليه، فأخذته بعيدًا عن حشد الجنازة.

بدأت حديثها قائلةً: «أرجوك لا تغضب، لكن لا بد أن أفهم ما الذي حدث لك عندما كنت مسافرًا، هل تسمح لي بقراءة مذكراتك اليومية؟»

عندما بدأت تقرأ المذكرات في وقت لاحق من ذلك اليوم، لم تكد تصدق ما مَرَّ به جوناثان. وبينما كانت تقرأ، أعادت كتابة لغته المختصرة بلغة مفصلة. وما إن انتهت من الصفحة الأخيرة، حتى وصل فان هيلسنج.

كان عليها تأجيل أسئلتها له حتى يسألها هو، فقد كان لديه الكثير ليسأله بشأن ما حدث للوسي، وخاصةً في ويتبي. كانت مينا شابة دقيقة الملاحظة تدوِّن كل شيء في مذكرات خاصة بها، وسألها فان هيلسنج أن تسمح له بقراءتها.

قالت مينا: «دكتور فان هيلسنج، يسعدني كثيرًا أن أعطيك أي معلومات أعرفها عن لوسي، لكن هلا ساعدت زوجي أيضًا؟»

أجاب فان هيلسنج: «بالطبع سأفعل، كيف تريدين أن أساعده؟»

قالت مينا: «سأريك شيئًا، إنه نص مذكرات زوجي.» كانت تقبض على الأوراق بإحكام. ثم أردفت: «لكن لا بد أن تعدني ألا تضحك أو تصدر حكمًا مسبقًا عليه. فالأشياء التي كتب عنها ... ليست عادية.»

طمأنها فان هيلسنج قائلًا: «لا تقلقي، فأنا معتاد على الأمور الغريبة.» وعدها فان هيلسنج بأن يأخذ الأوراق معه إلى المنزل ليقرأها.

وبعد مرور بضعة أيام، تلقت مينا برقية من أربع كلمات: «كل ما قاله صحيح.»

وفي الوقت ذاته، كان آرثر هولمود في لندن يواجه الحقائق المريعة التي اكتشفها. أثناء وقوف آرثر مع جون سيوارد بجانب جثة لوسي بينما كان الطبيب يعدُّها للدفن، سأله آرثر: «جون، هل هي ميتة حقًّا؟»

حتى في موتها، كان جسد لوسي يبدو صحيحًا على نحو غريب. شيء ما كان يجري، وكان الدكتور سيوارد بحاجة إلى معرفته. لاحقًا، عندما اختلى دكتور سيوارد بفان هيلسنج، طالب بأن يعرف الحقيقة كاملة.

سأله فان هيلسنج: «ألا تساورك شكوك؟»

هز دكتور سيوارد رأسه.

قال فان هيلسنج: «لا يدهشني هذا، فأنت رجل علم. أحيانًا، يشقُّ على رجال أمثالك أن يفهموا الأمور التي لا يوجد لها تفسير إلا في كتب السحر. فمثلًا، هل يمكنك أن تخبرني لم تعيش بعض العناكب أيامًا قلائل وتعيش بعض العناكب الضخمة الأخرى قرونًا داخل أبراج الكنائس الإسبانية العتيقة، ويستمر حجمها في الازدياد يومًا بعد يوم إلى أن تشرب الزيت الموجود في مصابيح الكنيسة بأكمله؟»

سأله دكتور سيوارد: «العناكب؟»

أردف فان هيلسنج: «ولم تعمر السلاحف أكثر مما تعمر أجيال من البشر؟ لم تستمر حياة الفيل على مر عهود طويلة؟»

كان رأس الدكتور سيوارد يدور، فصاح: «انظر يا أستاذي، أخبرني فقط! هل هذا نوع غامض من الأمراض، وهل يُحتمل أن تكون اللدغة التي كانت على رقبتها هي السبب فيه؟ وهؤلاء الرجال الذين عُثر عليهم في المدينة وقد أصيبوا بثقوب في رقابهم؛ هل لدغهم نفس المخلوق الذي لدغ لوسي؟ لا أستطيع أن أجد إجابة عن ذلك. لِمَ تتحدث عن العناكب والسلاحف والفيلة في حين ما أحتاجه هو أن تخبرني ما يجب فعله؟»

قال فان هيلسنج في هدوء: «ما يجب عليك فعله هو أن تصدق ما يستعصي تصديقه. يجب أن تتحلى بالإيمان. أتقدر على ذلك؟»

وعده دكتور سيوارد بأن يحاول.

الفصل الحادي عشر

لوسي تتغير أكثر

سُر فان هيلسنج لوعد دكتور سيوارد، وقال له: «سأمنحك إجابة قاطعة، الثقوب الدقيقة التي وجدوها على أعناق أهل المدينة لم يحدثها المخلوق الذي لدغ الآنسة لوسي.» ثم توقف لحظة وأردف: «بل أحدثتها الآنسة لوسي نفسها.»

قال دكتور سيوارد متعجبًا: «أستاذ هيلسينج، هل جننت؟»

قال فان هيلسنج: «أستطيع إثبات ما أقول، تعال معي الليلة إلى المقبرة.» وأخرج شيئًا من جيبه، وقال: «لقد تمكنت من الحصول على مفتاح القبر.»

لم يُصب دكتور سيوارد بارتباك كهذا طيلة حياته. وبالرغم من ذلك، فقد كان يثق في معلمه القديم ويحترمه أكثر من أي شخص في العالم، لذا وافق على الذهاب معه. سيحاول أن يصدق؛ أن يتحلى بالإيمان.

في مقبرة لوسي تلك الليلة، نظر دكتور سيوارد بينما كان فان هيلسنج يفك مسامير نعش لوسي ويرفع الغطاء. كان النعش فارغًا.

سأله فان هيلسنج: «هل هذا دليل كافٍ؟»

أجاب جون سيوارد: «ربما سرقها لص من لصوص الجثث.»

قال فان هيلسنج: «حسنًا، سأعطيك دليلًا آخر.»

في تلك الليلة انتظرا عودة لوسي. لاح بين الأشجار شبح أبيض، لكنه لم يكن لوسي. لقد كان شبح طفلة. شك فان هيلسنج في أن لوسي لم تكن بعيدة، وأنها قد تكون طاردت الطفلة. لحسن الحظ، لم تصب الطفلة بأذى، لكنها كانت منهكة ومتَّسخة ومذعورة. شعر فان هيلسنج بأن الأولوية هي أخذ الطفلة للشرطة بعيدًا عن الأذى. قال دكتور سيوارد: «أظنها فكرة سديدة.» لم يكن مقتنعًا بعد بنظرية فان هيلسنج عن لوسي.

وفي صباح اليوم التالي، عاد دكتور سيوارد مع فان هيلسنج إلى المقبرة، وهذه المرة، كانت لوسي في نعشها. وقد بدت أجمل مما كانت عليه وهي حية، أمر لا يُصدق. كانت وجنتاها متوردتين، وكانت شفتاها حمراوين.

قال فان هيلسنج: «ألم تقتنع بعد؟»

رد سيوارد مترددًا: «حسنًا، ربما أعادها لص الجثث.»

قال فان هيلسنج: «ليس هذا بوجه امرأة ميتة.» وجذب شفتي لوسي للخلف ليكشف عن أسنان بيضاء طويلة وحادة، وقال: «لكن هذه هي الأسنان التي كانت تلدغ السكان المحليين.» وأثناء حديثه، وضع بعض الثوم حول النعش ووضع صليبًا حول رقبة لوسي، وأضاف: «حسنًا يا جون. هذه هي الحقيقة الدامغة كاملة: لقد عض لوسي مصاص دماء وهي تسير نائمة. والآن تحولت إلى مصاص دماء. ولا بد أن أقتلها وهي نائمة.»

قال دكتور سيوارد وهو في حالة ذهول: «أكمل حديثك.»

قال فان هيلسنج: «لا بد أن أطعنها بوتد في قلبها. لا بد أن أفعل هذا بها أولًا ثم بمصاص الدماء الأكبر الذي فعل هذا بها. لكن ليس الليلة. علينا أن نُعلم آرثر بهذا الخبر.»

قال دكتور سيوارد متعجبًا: «آرثر! لا يمكننا أن نخبره. لن يستطيع تحمل أخبار كهذه.»

اعترض فان هيلسنج قائلًا: «بل علينا أن نخبره. إنه يشعر بوجود خطب ما، ولكن لا يعلم ما هو. وهذا يجعل الغضب والقلق يستبدَّان به. بحالته هذه، لن يبرأ حزنه أبدًا. لا بد أن يعرف الحقيقة.»

في الليلة التالية، بناءً على طلب فان هيلسنج، جمع دكتور سيوارد موريس وآرثر وقابلوا فان هيلسنج في فندقه.

سأل فان هيلسنج الرجال الثلاثة الواقفين أمامه: «هل تثقون بي؟ هل ستشدون من أزري في أي شيء يجب عليَّ فعله؟»

أحنى جون سيوارد الذي كان على علم مسبق بالخطة رأسه في صمت معربًا عن موافقته. قال موريس: «لا أعلم ما الذي يجري هنا لكنني أثق في الأستاذ وأقسم أنه أمين، وهذا يكفيني. سأشارك معكم.»

لم يقتنع آرثر بسهولة كغيره. قال: «لا أقصد أن أكون عنيدًا، لكنني رجل مسيحي ونبيل. إذا طمأنتموني إلى أن ما تعزمون عليه لا يخالف أيًّا من هذين الأمرين، فسوف أساندكم.»

11

لوسي تتغير أكثر

قال فان هيلسنج: «وأنا أقبل بشرطك. اتبعوني.»

بينما كان فان هيلسنج يقود الرجال إلى ساحة الكنيسة حيث دُفنت لوسي، كان توتر آرثر يزداد. فأمسك بذراع فان هيلسنج وقال: «انتظر هنا، ماذا نفعل؟»

تحدث فان هيلسنج مباشرةً: «سندخل مقبرة لوسي ونفتح نعشها.»

صاح آرثر: «بالطبع لن أسمح بذلك!»

سأله فان هيلسنج: «ولماذا؟ لو كانت ميتة، فلن يضرها ذلك.»

سأل آرثر مأخوذًا: «لو؟ هل تعتقد أنها قد لا تكون ميتة؟ هل حدث خطأ ما؟ هل دُفنت حية؟»

شرح له فان هيلسنج على مهل: «إنها ليست حية، لكنها قد تكون بعيدة كثيرًا عن الموت.»

نظر إليه آرثر وكأنه على وشك أن يقتلع رأسه، وقال له: «أنا أحذرك يا سيد، من واجبي أن أحمي قبرها، وأقسم بالله أن أفعل هذا.»

أجاب فان هيلسنج: «وأنا أيضًا لدي واجب عليَّ القيام به، واجب نحو الآخرين، ونحوك، ونحو الأموات، وأقسم بالله أني سأفعله. كل ما أطلبه هو أن تأتي معي، أن تنظر وتسمع، ثم تقرر.»

ووافق آرثر.

الفصل الثاني عشر

لوسي تتغير مرة أخرى

لم يكن متبقيًا على منتصف الليل سوى خمس عشرة دقيقة عندما تسلقت المجموعة التي تألفت من فان هيلسنج وكوينسي موريس وسيوارد وآرثر سورًا منخفضًا ووصلت إلى المقبرة. فتح الأستاذ فان هيلسنج الباب وأضاء مصباحًا وأشار إلى تابوت لوسي. لقد كان فارغًا.

انتفض آرثر وكأنه يشعر بألم. لكن الأستاذ انطلق في أرجاء المكان؛ فأولًا أغلق التابوت، وأخذ قطعة من خبز القربان بين يديه، ثم فتتها وبللها وصنع ما يشبه العجين. ووضع هذا العجين في سدادات التابوت.

سأله موريس: «ماذا تفعل؟»

أجاب: «أسد المقبرة بخبز القربان؛ ذلك الخبز المقدس. فهو يطرد الشر. والآن لننتظر بالخارج.»

أمَّن الرجال أماكنهم بين الشجيرات. حذرهم فان هيلسنج قائلًا: «صه! أحدهم قادم.»

جثم الرجال وظلوا يراقبون، كان جسم أبيض يتحرك تجاههم. وعلى الفور، أدركوا جميعًا أنها كانت لوسي، لكنهم صدموا جميعًا للتغير الذي أصابها. لقد تحولت عذوبتها بطريقة ما إلى قسوة، وتحول نقاؤها القديم إلى شر جديد. تسارعت أنفاس آرثر.

رفع فان هيلسنج مصباحه وسلَّط الضوء على لوسي. وفي ضوء المصباح، رأى الرجال أن شفتيها كانتا قرمزيتين بفعل آثار دماء حديثة.

وعندما رأت لوسي الرجال، زمجرت واستهجنت في غضب، كالقطة التي باغتها أحدهم. كان الشر يتطاير من عينيها. ولكن حينئذ غيرت مسارها. نادت: «آرثر» ومدت ذراعيها نحوه في رقة مردفة: «اقترب مني.» تحرك آرثر نحوها كالمسحور، واندفعت هي

نحوه. لكن فان هيلسنج كان مستعدًّا لمواجهتها، فقفز بين الاثنين، ممسكًا بيده صليبًا ذهبيًّا. قفزت لوسي إلى الوراء وقد تحولت ملامح وجهها وأسرعت فيما يبدو عائدةً إلى قبرها.

لكن عندما أصبحت على بُعد قدم أو اثنين منه، توقفت، حيث شعرت بخبز القربان الذي وضعه فان هيلسنج بداخله. فعادت مرتبكة وغاضبة. وكأن الشرر كان يتطاير من عينيها؛ لو كانت النظرات تقتل لكانت نظراتها قاتلة. لقد كانت وحشًا.

سأل فان هيلسنج آرثر: «هل أستمر؟»

سقط آرثر على ركبتيه وقال في وهن: «افعل اللازم.» أغمض عينيه ظانًّا أن فان هيلسنج سيقتل لوسي حينها. ولكن بدلًا من ذلك، سار فان هيلسنج نحو لوسي، وأزال الخبز من تجاويف النعش، وفتح التابوت وتراجع. انسلَّت لوسي بداخله بشعور لا يوصف إلا بالراحة، وأغلق الأستاذ الغطاء.

قال: «الليلة ليست الوقت المناسب.»

وفي اليوم التالي، عادوا ووجدوا لوسي نائمة في نعشها. ألقى الرجال نظرة أخيرة على فم المرأة الجميلة الذي كان لا يزال ملطَّخًا بالدماء. كانت الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها أثناء نومها تقليدًا شيطانيًّا لعذوبتها التي تميزت بها أثناء حياتها.

أخرج فان هيلسنج أدواته من حقيبته الطبية سريعًا، ومن بينها وتد خشبي مستدير مسنن الطرف.

شرح لهم فان هيلسنج الأمر قائلًا: «عندما يصبح ضحايا العض أشباحًا بصورة قاطعة، يواصلون افتراس ضحايا جدد وينشرون شرهم. وإذا لم نوقفهم تتسع الدائرة دون توقف، كالموجات التي تتكون عند إلقاء حجر في الماء.» تحدث بلطف إلى صديقه قائلًا: «آرثر، لو كنت تركت لوسي تقبِّلك ذلك اليوم عندما منعتها أول مرة أو الليلة الماضية عندما أردت أن تحتضنها ثانيةً، لأصبحت مصاص دماء أيضًا.»

وأضاف: «أما إذا قتلناها الآن، فستشفى على الفور جراح كل البشر الذين عضتهم حتى الآن، حيث لن يعود لها سلطان عليهم. وسنحرر لوسي هي الأخرى.

بدلًا من أن تزداد شرًّا يومًا بعد يوم، ستكون ملاكنا في المكان الذي تستحقه، في المكان الذي تنتمي إليه، مع الملائكة الآخرين. ستجد أننا نسديها معروفًا، إذا فكرت من هذا المنظور.»

قال آرثر في ثبات: «إذن اترك لي هذه المهمة، فقط أخبرني بما عليَّ فعله.»

أوضح له فان هيلسنج أن عليه طعنها بوتد مباشرةً في قلبها. وقال: «يجب ألا تتردد.»

ولم يتردد آرثر. ففي لحظة انتهت المهمة المريعة، ولم يكن في النعش وحش شرير، وإنما كانت لوسي التي عهدوها، بجسدها الطبيعي. الهدوء الذي كان يعلو وجهها بعث الطمأنينة في قلوب الرجال الثلاثة عندما نظروا إليه. وأخيرًا رقدت لوسي في سلام.

قال فان هيلسنج: «الآن يمكنك تقبيلها.»

انحنى آرثر نحوها وطبع على جبينها قبلة.

أعلن فان هيلسنج قائلًا: «لقد بدأ عملنا للتوِّ، علينا بعد ذلك أن نجد الذي تسبب في كل هذه المأساة ونسحقه. فهل ستساعدونني جميعًا؟ هل سنعمل كفريق؟»

اتفق الرجال على أن يلتقوا بعد ذلك بليلتين في المصحة التي كان يعمل بها ويعيش بها الدكتور سيوارد. كان فان هيلسنج سيحضر رجلين آخرين، وقال إن جوناثان هاركر قد احتفظ بمذكرات دقيقة تروي لقاءه بالوحش، وهذا سيفيدهم في سعيهم.

تصافح الرجال وتعاهدوا على أن يستمروا في الكفاح حتى يقضوا على الشر.

الفصل الثالث عشر

الرجال يستبعدون مينا

عاد فان هيلسنج في زيارة سريعة إلى منزله بأمستردام للرجوع إلى بعض كتبه، وغادر جوناثان ليتفقد الشحنة التي نُقلت من ديميتر؛ المركب الذي كان قد وصل ويتبي في ظروف غريبة. في الوقت نفسه، ذهبت مينا إلى المصحة لتزور السيد سيوارد. كانت تريد أن تسمع آخر تفاصيل وفاة صديقتها القديمة لوسي. كانت القصة وحشية وغامضة. لو أن مينا لم تقرأ أحداثًا مشابهة في دفتر مذكرات جوناثان عن ترانسلفانيا، لظنت أن الدكتور سيوارد قد فقد عقله.

تعجب كلاهما من المصادفة التي حدثت؛ فقد علما مما جاء في مذكرات جوناثان أن كارفاكس — المنزل الذي اشتراه الكونت مؤخرًا — كان بجوار المصحة مباشرةً. والآن فهم الدكتور سيوارد سبب التصرفات الغريبة التي كانت تصدر من رينفيلد؛ مريضه الذي كان يشتهي دماء الحيوانات.

بالإضافة إلى ذلك، اتضح أن بعض التوابيت — على الأقل — التي كانت ممتلئة بالتراب قد وُضِعَت في عقار كارفاكس. كان أحد الموظفين المقيمين قد أخبرهم أنه رأى طردًا ضخمًا يُسلم في يوم سابق.

سرعان ما أصبح الجميع حاضرين ومتأهبين للبدء في التخلص من الوحش الشرير. كان بينهم بالطبع فان هيلسنج، القائد غير الرسمي للفريق. وجوناثان هاركر، الرجل الوحيد بينهم الذي التقى الكونت بالفعل وجهًا لوجه. وكوينسي موريس، الذي كان يبدو مرحًا لكن يمكن الاعتماد عليه. ودكتور جون سيوارد، الذكي صاحب التفكير العلمي. واللورد جودالمينج، الذي كان رجلًا صاحب أخلاق رفيعة وأموال كثيرة، سيحتاج الفريق إليهما بالتأكيد.

سألت مينا: «وماذا عني؟»

أجاب فان هيلسنج: «إنك لا تقلين فطنةً عن أي رجل، لكن مطاردة مصاصي الدماء عمل لا يصلح للسيدات.»

وأمسكت مينا لسانها وصمتت.

بينما خرج موريس ليجمع الأسلحة، أخبر فان هيلسنج المجموعة ببعض التفاصيل الأساسية عن مصاصي الدماء. فأوضح لهم أنه في كل مرة يعض مصاص الدماء، يزداد قوة. ومصاص الدماء لديه القدرة على توجيه الطقس وإرسال العواصف والضباب والرعد. يستطيع أن يأمر الفئران والبوم والخفافيش والذئاب. ولا يمكن رؤيته في المرايا. يمتلك مصاص الدماء الواحد قوة عدة رجال، ويمكنه أن يصبح ضخمًا أو أن يختفي تمامًا.

قال فان هيلسنج مؤكدًا: «ولكن يجب ألا ننسى، أننا — نحن البشر العاديين — أقوياء أيضًا، فالعلم سلاحنا. ولدينا حرية الفكر وحرية التصرف. ومصاص الدماء لديه بضع نقاط ضعف كبيرة. تتبدد قوته مع شروق شمس كل صباح. ولا يستطيع أن يتحول إلا عند شروق الشمس أو غروبها بالضبط. وهو يخشى الصلبان والثوم.»

سأل آرثر: «ما الخطة؟»

قال فان هيلسنج: «يجب أن نجد كل تابوت من التوابيت الخمسة عشر ونطهر التراب الذي بداخلها باستخدام الخبز المبارك؛ حتى لا يتمكن الكونت من العودة إليها. وبعدها، لا بد أن نجد ذلك الوحش، بين الفجر وغروب الشمس عندما يكون في أضعف حالاته، ونغرس وتدًا في قلبه.»

قاطعهم صوت تهشم زجاج. لقد كان صوت تهشم النافذة المجاورة لهم. شخص ما أطلق الرصاص عليها. انحنى كل منهم متفاديًا الهجوم ظنًّا منهم أنه الكونت، لكن كل ما في الأمر أن الرصاصة أطلقها كوينسي موريس من أسفل وهو مضطرب. أوضح لهم كوينسي أنه رأى خفاشًا ضخمًا يقف على عتبة النافذة يختلس النظر إليهم، فأطلق عليه النار بمسدسه.

قال اللورد جودالمينج ممازحًا: «رمية موفقة.»

سألت مينا: «متى نبدأ؟»

ذكرها فان هيلسنج قائلًا: «بل متى نبدأ نحن، وليس أنت.»

بدأت مينا تعترض، ولكن حتى جوناثان بدا موافقًا. لقد كان الرجال عازمين على عدم إقحامها في الأمر.

حينها طرق أحد الموظفين المقيمين الباب ومعه رسالة للدكتور سيوارد. كان رينفيلد يطلب لقاءه.

قال فان هيلسنج: «أود أن أقابل هذا المدعو رينفيلد.» قرر الآخرون أن يذهبوا أيضًا.

عندما دخل الرجال غرفته، وجَّه رينفيلد خطابه إلى دكتور سيوارد قائلًا بهدوء: «دكتور سيوارد، يجب أن أغادر المشفى على الفور. من أجل الآخرين، يجب أن تتركني أذهب.»

حدَّق فان هيلسنج في رينفيلد بنظرة حادة تنم عن شك، وقال: «ما السبب الحقيقي الذي تريد أن تتحرر من أجله الليلة؟»

قال رينفيلد: «لا أستطيع أن أخبرك.»

رفض الدكتور سيوارد. فخرج رينفيلد عن شعوره، وألقى بنفسه على الأرض وتوسل في هستيريا. قال منتحبًا: «أرجوك، دعني أخرج من هذا المنزل! إنك لا تعلم ما تفعله بإبقائي هنا. لا أستطيع أن أخبرك من الذي سيتأذى، لكن أرجوك، أتوسل إليك، لست مجنونًا. أنا رجل عاقل يحارب لينجو بروحه. أرجوك!»

انفطر قلب دكتور سيوارد. لقد كان رينفيلد بالفعل أفضل حالًا، على الأقل قبل ذلك الانهيار. لكنه كان مشوشًا بشأن الكونت. كان ينادي دراكولا «مولاي» و«سيدي». خشي دكتور سيوارد من فعل أي شيء يساعد الكونت. وكان جوابه النهائي: «لا».

تمتم رينفيلد: «لاحقًا، تذكَّر فقط مغبة ما فعلته.»

قال دكتور سيوارد عندما كانت المجموعة تسير عائدة إلى المكتب: «أتمنى أن أكون قد فعلت الصواب.»

أجاب الأستاذ فان هيلسنج: «لا يسعنا إلا أن نفعل ما نظنه الأفضل في هذا الحين.»